Journal of Alasmarya University
Volume 10, December 2008
مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد العاشر، ديسمبر 2008

الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

د. خالد محمد القضاة*

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المنزل عليه هذا القرآن ليبينه للناس بأمر ربه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44] فأزال معالم الوثنية والضلال، وأعلى منار التوحيد والإيمان وعلى آله وصحبه نجوم الهدى ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فإن أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون مدارسة كتاب الله تعالى، ومداومة البحث فيه، والغوص عن لآلئه والكشف عن علومه وحقائقه، وإظهار إعجازه، وتجلية محاسنه، والدفاع عن ساحته ونفي الشكوك والريب فيه، والقرآن الكريم بحر لا يدرك غوره، ولا تنقضي عجائبه، فما أحق الأعمار أن تفنى فيه، والأزمان أن تنشغل به وكل ساعة يقضيها الباحث في النظر في كتاب الله، والتأمل فيه، أوفي البحث فيما يتصل به في سبيل الله وفي سبيل الإسلام.

والقرآن الكريم هو الآية الأولى للرسول ﷺ، ودليله الأعظم على نبوته ورسالته، وهو يحمل الدليل من ذاته على أنه كلام الله تعالى أوحى به لنبيه ﷺ. والقرآن الكريم قد تحدى الناس كافة، وطالبهم أن يأتوا بمثله لكنهم لم يقدروا على ذلك، وبذلك عجزوا عن معارضته، فصار معجزة لهم.

* الجامعة الأسمرية.

إن إعجاز القرآن حقيقة قاطعة، وبدهية مقررة ولهذا الإعجاز القرآني وسيلة إلى هدف عظيم، وغاية سامية، وليس هدفاً بحد ذاته. الهدف من دراسة إعجاز القرآن هو: إثبات مصدر القرآن الرباني، وأنه كلام الله سبحانه وتعالى، وليس كلام محمد ﷺ، والإقرار بنبوة محمد الذي بعثه الله رسولاً للعالمين. وإعجاز القرآن دليل واضح من أدلة كثيرة على هذه المسألة العظيمة، التي هي أساس الإيمان: القرآن كلام الله، ومحمد ﷺ رسول الله.

ولقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيه محمد ﷺ، وجعله دليلاً على صدق الرسالة وحجة الرسول، وأودع فيه من الحكم والأسرار، ما يقضي المرء في تدبرها الليل والنهار، وما يستحق أن يقطع في معرفتها الفيافي والقفار، ابتغاء رحمة ورضوان العزيز الغفار، وقد سعد المسلمون الأوائل بتمسكهم بتعاليمه، والسير على نهجه وطريقه، لذا سادوا العالم وعاشوا حياة هنيئة في الدنيا مع ما ينتظرون من الثواب الجزيل في الآخرة.

وأسعد وقت يقضيه الإنسان في حياته هو الذي يعيش فيه مع القرآن بروحه وقلبه، ويجعله نبراساً يضيء حياته، وقبساً يمشي على ضيائه، ونوراً يوضح له معالم المعرفة والهداية. وإذا اتخذ الإنسان القرآن له أنيساً يتفهم آياته وسوره، فإن القرآن سيفيض عليه من الروحانية والهداية ما يجعله كبير العقل، يفعل كل خير، وينتهي عن كل شر، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [الإسراء: 9].

فالقرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، يخرج الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور معرفة الله والإيمان به والاستجابة له. وما من يوم يطلع شمسه إلا وعشرات يدخلون في دين الإسلام، لأنه دين الحق الذي لا غموض فيه ولا أسرار ولا طلاسم ولا متناقضات. وما حل الذل والهوان بالمسلمين إلا بسبب تنكبهم عن طريق القرآن العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

وقد كثرت الدراسات والأبحاث حول القرآن الكريم خدمة له، ومحاولة لكشف مكنوناته، واستخراج درره، فمن باحث في تفسيره، إلى باحث في إعجازه، إلى باحث في علومه المتنوعة المتعددة، إلى باحث في قراءاته، إلى غير ذلك من الدراسات حول الكتاب العزيز التي غدا كل نوع منها علماً قائماً بذاته تزخر المكتبة الإسلامية بالمؤلفات فيه. ولا غرو فكتاب الله تعالى، لا يستقصي معانيه فهم الخلق ولا يحيط

بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق.

وتعددت المدارس والاتجاهات في دراسة إعجاز القرآن، وظهرت الكتب والدراسات والأبحاث الكثيرة العديدة في بحث الإعجاز وفهمه ودراسته، وتباينت الآراء في تعليل إعجاز القرآن، بماذا كان معجزاً، ومن ثم اختلف العلماء في وجوه الإعجاز. وقد أجمع الباحثون على القول بالإعجاز البياني وأن القرآن معجز ببلاغته وأسلوبه وبيانه وتعبيره، وأنه بهذا يقدم شهادة عظيمة على المسألة، إثبات أن القرآن كلام الله تعالى. وعد بعض الدارسين وجوهاً كثيرة للإعجاز، فقالوا بالإعجاز الغيبي، والإعجاز التاريخي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز الطبي، والإعجاز النفسي، والإعجاز الفلكي، والإعجاز الجغرافي، وغير ذلك.

وقد أحببت أن أسهم بشيء في خدمة كتاب الله تعالى، فكان هذا البحث حول الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وقد سرت فيه على هذه الخطة:

- تعريف الإعجاز التأثيري: لغة واصطلاحاً.
- نشأة الإعجاز التأثيري وتطوره، وآراء العلماء في ذلك من خلال حديث بعض العلماء في القديم والحديث عن هذا الوجه بالذات.
- الإعجاز التأثيري من خلال الآيات القرآنية، وأثر القرآن الكريم في البشر والجن مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم وأثره على الجماد وسر تأثير القرآن الكريم على المخلوقات قاطبة وقائمة المصادر والمراجع.

وأدعو الله سبحانه أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يتجاوز عما فيه من تقصير، وأن يكون مناراً لمن يبتغي الحق والهدى، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول: معنى الإعجاز

تمهيد

يجدر بنا أن نشير في هذا البحث إلى معنى كلمة (عجز) في كل من اللغة والاصطلاح، وقد يلحظ الباحث في معاجم اللغة العربية أن علماء اللغة -خاصة أصحاب المعاجم- قد ركزوا اهتمامهم على مصدر الكلمة وطرق الكشف عنها، أما المادة الاشتقاقية فلم تنل حظاً وافراً من حيث الترتيب الاشتقاقي.

الإعجاز لغةً

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته عن العجز «عجُزُ الإنسان: مؤخَّره، وبه شُّبه مؤخّر غيره قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: 20]. والعجزُ أصله: التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي مؤخره، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة. وأعجزت فُلاناً وعجّزتُه، وعاجزته، أي جعلته عاجزاً»[1]. قال الله تعالى: ﴿فَاعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 3] وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: 31] هذا عن المعنى اللغوي للجذر الثلاثي للمادة (العجز).

أما الإعجاز: فهو مصدر الفعل الرباعي أعجز، فهنا فعلان:

الأول: فعل ثلاثي: تقول: عَجَزَ، يَعْجِزُ، عجز. فهو عاجز بمعنى ضعف عن فعل الشيء وقصر عن التنفيذ وتأخر عن العمل المطلوب ولم يقدر عليه.

الثاني: فعلٍ رباعي: نقول: أعجَزَ، يُعْجِزُ، عجزاً، فهو معجز، بمعنى سبق وفاز. تقول أعجَزَ الرجلُ خصمه، بمعنى: فاته وسبقه وفاز عليه وغلبه، بحيث لم يستطع الخصم العاجز إدراكَه واللحاق به[2].

معنى إعجاز القرآن

كلمة (إعجاز القرآن) مركب إضافي وكلمة إعجاز مصدر: وإضافتها للقرآن الكريم من إضافة المصدر لفاعله، فكأن التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله، ومعنى هذا أن القرآن الكريم دل بما فيه من بيان على أنه من عند الله، وثبت عجز الناس عن أن يأتوا بمثله وهذا معناه أن القرآن صار معجزاً لهم حيث أوقع بهم العجز والضعف والقصور والتأخر وهو قد تفوق عليهم وفاتهم وسبقهم.

وقد عرفه القاضي عبد الجبار رحمه الله بقوله: «معنى قولنا في القرآن الكريم إنه معجِز أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به»[3]، ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: «وإنما الإعجاز شيئان ضعف القدرة

1- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني 547 وانظر: لسان العرب م4 ص69 مجمل اللغة ج3، 648

2- انظر: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني د. صلاح الخالدي 15.

3- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار 16 /226.

الإنسـانية في محاولـة المعجـزة، ومزاولته على شدة الإنسان، واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كلّه في العجز إنسان واحد ليس له غـير مدتـه المحـدودة بالغـة ما بلغت»[4]. وقد عرفه الدكتور صلاح الخالدي حيث قال: «هـو عـدم قـدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكيـتهم البيانـية وقـيام الداعـي علـى ذلـك وهو استمرار تحديهم وتقرير عجزهم عن ذلك»[5].

وممكن تعريفه بأنه: «عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القـيامة مـن الإتـيان بمـثل هذا القرآن مع تمكنهم من البيان وتملكهم لأسباب الفصاحة والـبلاغة وتوفـر الدواعـي واستمرار البواعث». وإعجاز القران الكريم للمنكرين له يدل علـى أنـه مـن عـند الله تعـالى وليس كلام أي مخلوق آخر فلو كان كلام بشر لما عجز المنكرون عن معارضته.

والخلاصـة: إن الإعجـاز لغة واصطلاحاً قد جاء متقارباً وذلك في بعض المعاني كالضعف، والتثبيط والتقصير وما وقع في تلك الدائرة من معان.

المعجزة في القرآن الكريم

ورد في القـرآن الكـريم استعمال مشتقات كلمة (عجز) نحو ست وعشرين مرة لكنه لم يرد استعمال مصطلح معجزة ولا (إعجاز) في القرآن الكريم ولا في السنة ولم يكـن معـروفاً هـذا الاصـطلاح في عهد النبوة والصحابة والتابعين إنما عرف في أواخر القرن الثاني تقريباً[6]

وأطلق القرآن الكريم على المعجزة عدة مسميات منها:

- الآيـة: قـال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 109].
- البيـنة: قـال موسـى علـيه السـلام لفـرعون: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 105].

4- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي 139
5- البيان في إعجاز القرآن، د. صلاح الخالدي 23، وانظر: إعجاز القرآن البياني 17
6- مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم 13.

- البرهان: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [النساء: 174].
- السلطان: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 11] وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [المؤمنون: 45-46][7].

التأثيري

هو مركب إسنادي من أثر الشيء: أي حصول ما يدل على وجوده، يقال: أثر الشيء وأثر، والجمع الآثار، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27] ويقول: ﴿وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: 21] ويقول: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: 50] ومن هذا يقال للطريق المستدل من تقدم آثار: ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: 70] ويقول: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ [طه: 84]. وأثرت البعير: جعلت على خفه أثره، أي علامة تؤثر في الأرض ليستدل بها على أثره، وأثرت العلم: رويته، أثراً، وإثارةً، وأثرةً، وأصله: تتبعت أثره[8].

والخلاصة: فالتأثيري في اللغة مأخوذ من الأثر والنتيجة، والمحصلة الدالة على وجود مؤثر سواءً أكان المؤثر حياً كما في قولهم: «أثرت البعير»، أم معنوياً كما في قول الله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾. والآثار هي اللوازم المعلقة بالشيء[9]، أو جملة الأمور التي تنتج عن الشيء المسبب لها.

اصطلاحاً: الإعجاز التأثيري للقرآن: هو «وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته ودفعه ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به»[10]. أو هو تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية عندما تسمعه، وتفاعلها

7- دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي 259 /260، وانظر: إعجاز القرآن الكريم، منشورات جامعة القدس 16

8- المفردات في غريب القرآن 484

9- الظاهرة القرآنية 60

10- التعريفات، الجرجاني 9

معه حتى لو كانت نفساً كافرة[11].

المبحث الثاني: نشأة الإعجاز التأثيري وتطوره

تستطيع أن نميز هنا بين مرحلتين من مراحل نشأة الإعجاز التأثيري وتطوره.

المرحلة الأولى: مرحلة النشأة

تتمثل نشأة هذا الوجه الإعجازي للقرآن الكريم بنزول القرآن نفسه اتصالاً مباشراً وذلك لما يلي:

أولاً: أمر الله تعالى في كتابه الحرص على إسماع المشركين القرآن الكريم ليكون ذلك عوناً على دعوتهم للإسلام. قال ابن حجر: «ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: 6] فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجز»[12]. والمعجزة لا بد لها من أثر في من تعجزه إما تصديقاً أو تكذيباً.

ثانياً: ما ورد في كتب السيرة والتفسير و أغلب الكتب التي تتناول قضية الإعجاز عن لجوء رسول الله ﷺ لإعجاز القرآن التأثيري كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام وظهور أثر هذه الوسيلة الفعال في كل من استعملت معه. إما قبولاً واعتناقا للإسلام أو نفوراً وإعراضاً عنه أو إقرارا لإعجاز القرآن في حاله.

ثالثاً: إن الإعجاز التأثيري في هذه المرحلة وهي مرحلة النشأة الأولى يتمثل في الممارسة والسلوك العملي للإعجاز نفسه دون التأليف فيه أو وضع قواعد أو أصول له، وإنما تدل الشواهد الكثيرة على ممارسته في حياة المسلمين. وبعد قرنين من الزمان وفي أوائل القرن الثالث الهجري أشار الجاحظ من خلال حديثه عن الإعجاز البلاغي للقرآن إشارات خاطفة للإعجاز التأثيري[13] وكذلك فعل الرماني في منتصف القرن الرابع.

11- البيان في إعجاز القرآن، الخالدي341-342

12- الإتقان في علوم القرآن 117

13- البيان والتبيين 1 /273

المرحلة الثانية: مرحلة التأهيل العلمي للإعجاز التأثيري

كثير من علماء التفسير والقرآن والبلاغة في القديم والحديث لاحظوا تأثير القرآن الكريم في القلوب وأثره في النفوس فاعتبروا ذلك التأثير من وجوه إعجاز القرآن وعبروا عنه بعبارات متفاوتة وسأقف مع عدد من العلماء في القديم والحديث ممن تحدثوا عن الإعجاز التأثيري.

الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت 388 هـ).

وكان أول من اعتبر هذا التأثير القرآني وجهاً خاصاً من وجوه الإعجاز هو الإمام الخطابي فقد نص عليه نصاً في رسالة (بيان إعجاز القرآن) فقال: « قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن، منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، تغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها. فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا »[14].

ابن القيم الجوزية (ت 751 هـ) ورأيه في الإعجاز التأثيري

يبين ابن القيم الجوزية ما يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة والنفوس خشية، وتستلذ الأسماع وتميل إليه بالحنين الطباع، سواءً أكانت فاهمة لمعانية أم غير فاهمة، وسواءً أكانت كافرة بما جاء به أم مؤمنة. يقول في كتابه (الفوائد)[15]: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

14- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، رسالة الخطابي 70. وانظر: البيان في إعجاز القرآن صلاح الخالدي 350

15- الفوائد من 15-17

وذلـك أن تمـام الـتأثير لما كان له موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصـول الأثـر وانـتفاء المانـع الـذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبيـنه وأدلـة علـى المراد بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهـنا وهـذا هـو المؤثر، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل والمراد به القلـب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يـس: 69-70] أي حـي القلـب وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي وجه سمعـه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثير بالكلام وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شـاهد القلـب حاضراً غير غائب، أي استمع إلى كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، لـيس بغافـل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل عن ما يقال له والنظر في تأمله.

فـإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل المقابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع بالذكر.

ثـم يقول: فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه الأشياء فما وجه دخول أداة أو في قـوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ والموضـع موضـع واو الجمع لا موضع أو التي هي لأحـد الشـيئين؟ قـيل: هـذا سؤال جيد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام باعتبار حال المخاطـب المدعـو فـإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة فإذا فكر بقلبه وجـال بفكـره دلـه قلـبه وعقلـه علـى صحة القرآن، وأنه من الحق، وشهد قلبه بما أخبر القـرآن. فكـان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قال فيهم القرآن: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: 6].

من خلال هذا نرى رؤية ابن القيم في مسألة التأثير، وكيفية حدوثها، وبيان أركانها وجوانبها، فإنه يرى أنها تقوم على أركان عدة:

1. المؤثر القوي والمقصود به: القرآن الكريم.
2. أداتا التلقي: القلب والسمع.
3. رغبة السامع في تفهم ما يسمع وتعقله.
4. الخـروج مـن شتى الموانع، سواء أكانت انحرافات عقائدية، أم شبهات فكرية، أم نزعات شهوانية، أم مكانة أدبية، أم منزلة اجتماعية، أم غير ذلك.

ومن الملاحظ أن ابن القيم رحمه الله هنا يتحدث عن دعوة المسلم للانتفاع بالقرآن الكريم، ولا ينص على ذكر الكافر، وذلك فإنه لا يكشف عن الجانب الأهم في أعجاز القرآن التأثيري ألا وهو: أثره على الكافر.

بعد هذا العرض لرأي بعض الأقدمين عن الإعجاز التأثيري أعرض رأي بعض العلماء المحدثين حول هذا الوجه من وجوه الإعجاز لنظهر لنا مراحل تطوره.

الدكتور عبد الكريم الخطيب ورأيه في الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

تحدث الدكتور عبد الكريم الخطيب عن إعجاز القرآن الكريم -بصفة عامة- حديثاً طويلاً، متناولاً إياه من خلال آراء علماء البلاغة الذين تناولوا وجوهه المتعددة، ووقف أمام وجه الإعجاز التأثيري للقرآن وقفات دقيقة، فنراه يحاول أن يكشف عن سر تأثير القرآن فيمن سمعه من المؤمنين والكافرين على سواء: «إن كلمات القرآن التي كانت على فم الناس، كان لها رحلة إلى الملأ من الأرض إلى السماء من أفواه الناس إلى عالم الروح، والحق والنور، وهناك في هذا العالم -عالم الروح والحق والنور- عاشت تلك الكلمات دهراً طويلاً بين ملائكة، وولدان، وحور، فنفضت عليها هذه الحياة الجديدة، روحاً من روحها، وجلالاً من جلالها ونوراً من نورها، حتى إذا أذن لها الحكيم الخبير أن تعود أدراجها إلى الأرض وتلقى في أفواه الناس مرة أخرى، وتطرق أسماعهم، وتتصل بعقولهم وقلوبهم، لم ينكروا شيئاً من وجودها، وإن سرى إليهم من هذا الوجود ما يخطف الأبصار ويخلب الألباب، فالمؤمنون في شوق متجدد معه وفي خير متصل منه، وفي عطاء موصول من ثمره، كلما مدو أيديهم إليه قطفوا من أدبه أدباً عالياً ومن علمه علماً نافعاً، ومن شريعته ديناً قيماً، وغير المؤمنين في عجب من أمره ودهش. يتناولونه بألسنة حداد، ويرمونه بسهام مسنونة، وبكيد عظيم، فما يصل إليه من كيدهم شيء»[16].

إن العبارة السابقة يحاول فيها الخطيب أن يضع أيدينا على هذا السر الذي جعل لكلمات القرآن على من يسمعه من الأثر الواضح مالا نجده مما نسمعه من كلام آخر، فكلمات القرآن الكريم قد رحلت إلى الملأ الأعلى حيناً من الزمن، أعطاها هذا الرحيل سراً يخطف الأبصار، ويخلب الألباب، ويجعل المؤمنين به في شوق دائم لسماعه، وغير المؤمنين في عجب ودهش من أمره.

16- الإعجاز في دراسات السابقين، د. عبد الكريم الخطيب 67-68

ويقـول الدكـتور الخطـيب معلقاً على كلام الإمام الخطابي عن الإعجاز التأثيري للقـرآن: «وهـذا الـوجه من وجوه الإعجاز هو -فيما نرى- المعجزة القائمة في القرآن أبـداً، الحاضـرة في كـل حين، وهي التي تسع الناس جميعاً، عالمهم وجاهلهم، عربيهم وأعجمـيهم، إنسهم وجنهم ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: 1-2]»(17).

ويعقـب الدكـتور الخطـيب تعقيباً على كلام ابن عطية عن وجوه الإعجاز فيقول: «وهـذا هـو سـر الإعجـاز وعظمـته كلمـات هـن مـن كـلام الناس ثم يفعلن هذا الأمر العجيب في النفوس، ويضمن هذا السلطان القاهر على القلوب»(18).

مـن خـلال ما تقدم نرى أن حديث الدكتور الخطيب عن الإعجاز يرتكز بصورة أساسـية على ما يحدثه القرآن من أثر في النفوس كما رأينا ذلك واضحاً في مقارنة بين أثـر كـلام البشر وكلمات القرآن على النفوس البشرية المؤمنة بالقرآن والمنكرة له على السـواء. إن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ومواقف الصحابة بل وما في واقـع الحياة البشرية في عصرنا الحالي وكل ما ذكره الدكتور تثبت وترصد مظاهر هذا الوجه من وجوه الإعجاز في حياة البشر وتؤكد اختياره له(19).

إن الدكـتور الخطـيب ذهب إلى أكثر من الاختيار لوجه الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما أخذ يبين مزايا هذا الوجه دون سواه، فهذا الوجه يمتاز عن سائر وجوه الإعجاز بأنه:

- المعجزة القائمة في كل حين.
- يسع الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم.
- يسعهم بكل لغاتهم عربيهم وعجميهم.
- لا يقتصر على الإنس وحدهم بل يسع الجن أيضاً.

الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ورأيه في الإعجاز التأثيري

لقـد أفـرد الشـيخ محمـد الغزالـي في كتابه (نظرات في القرآن) فصلاً كاملاً عن الإعجـاز في القـرآن الكـريم، ويرى فيه أن إعجاز القرآن يبرز في وجوه ثلاثة (الإعجاز

17- الإعجاز في دراسات السابقين 193

18- المصدر نفسه 321

19- المصدر نفسه 58-62

النفسـي، الإعجـاز العلمـي، الإعجـاز البيانـي) ومـن خـلال حديـثه عن الإعجاز النفسي التأثيري نراه يتمثل في نقاط أربع:

- مكانة الإعجاز التأثيري.
- تأثير القرآن في المؤمن والكافر.
- من وسائل تأثير القرآن: تقديم الدليل المفحم على كل شبهة، تعريف الأمثال.
- مواضع التأثر بالقرآن.

وحـديث الشيخ عن الإعجاز النفسي والتأثيري جاء مرسلاً دالاً على سجية مؤلفه ويحمـل في طـواياه هـذه النقاط الأربع السابقة، ونتلمس النقطة الأولى من حديث الشيخ عـن الإعجـاز النفسـي فـبعد أن يـتحدث عما يعرض له القرآن من عقائد دينية وأحكام تشـريعية وحقائـق علمـية يقول: « قد تجد في القرآن حقيقة مفردة، ولكن هذه الحقيقة تظهـر في ألف ثوب، وتتوزع تحت عناوين شتى، كما تذوق السكر في عشرات الطعوم والفـواكه وهـذا التكـرار مقصـود، وإن لم تـزد بـه الحقيقة العلمية في مفهومها، ذلك أن الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط، بل بناء الأفكار والمشاعر ونقاط مؤلفه آخر ما تختلفه اللجاجة من شبهات ...، ثم الكر عليها بالحجج الدامغة حتى تبقى النفس و ليس أمامها مفـر مـن الخضـوع لمفهـومها للحـق والاسـتكانة لله وعندي أن قدراً من إعجاز القرآن الكريم يرجع إلى هذا »[20].

تلك هي مكانة الإعجاز التأثيري عند الشيخ فإن كان للقرآن الكريم وجوه إعجاز أخـرى غـير أنهـا لا تصـل في قدرها وأهميتها إلى الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم في نفـس الإنسـان ولكـن هل يتأثر كل إنسان بالقرآن؟ أم يقتصر هذا التأثير على المؤمنين بـه؟ ويرد أمامنا على هذا التساؤل بما يؤكد مكانة الإعجاز التأثيري بين وجوه الإعجاز، وعـدم اقتصـاره علـى نفـس إنسـانية دون أخـرى فـيقول: « فمـا أظـن امـرءاً سليم الفكر والضـمير يـتلو القـرآن ويستمع إلـيه ثـم يـزعم أنه لم يتأثر به، قد تقول: ولم يتأثر به؟ والجـواب: أنـه مـا مـن هـاجس يعـرض للـنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعـرض لـه القـرآن بالهدايـة وسـداد التوجيه، ما أكثر ما يعز المرء من نفسه، وما أكثر الـذين يمضـون في سبل الحياة هائمين على وجوههم، ما تمسكهم بالدنيا إلا ضرورات المادة فحسب.

20- نظرات في القرآن، محمد الغزالي 123

إن القـرآن الكـريم بأسـلوبه الفـريد يرد الصواب إلى أولئك جميعاً وكأنه عرف ضـائقة كـل ذي ضيق وزلة كل ذي زلل ثم تكفل بإزاحتها كلها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منهم.

وذلـك سـر التعمـيم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهـف: 54]. حتـى الـذين يكذبـون بالقـرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله أنهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل، قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ولكنه يـؤخذ فترة ما يصد من العاطفة الباكية أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق ويحـدث العمـيان عـن اليقين الذي يريد ولا يرون أنه قد يرجع مستهزئاً، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها.

والمنكـرون من هذا النوع لا يطعنون في التأثير النفساني للقرآن الكريم، كما أن العمـيان لا يطعـنون في قيمة الأشعة ولذا يقول الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23]» (21).

وبـذلك يكـون الشـيخ رحمـه الله قـد تـناول الـنقطة الثانية التي يتأكد من خلالها إعجاز القرآن التأثيري في المؤمنين والكافرين به على حد سواء، وفي النقطة الثالثة يبرز الشيخ في بعض أسرار التأثير القرآني في الإنسان فيقول: « إن القرآن يملك على الإنسان نفسـه بالوسيلة الوحيدة التي تقهر تفوقه في الجدل أي بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة، وتسـليط الـبرهان القاهـر على كل حجة، فالنكوص عن الإيمان بعد قراءة القرآن يكون كفراً عن تجاهل لا عن جهل ومن تقصير لا عن قصور، والجدل آفة نفسية وعقلية معاً، فالنشاط الذهني للمجادل يمده حراك نفسي خفي، فلما يهدأ بسهولة ... ويستكمل الشيخ بـيانه عـن وسـائل القـرآن الـتي تسبب التأثير في النفس الإنسانية فيقول: « إن طبيعة هذا القرآن لا تلبث أن تعتبر برودة الإلف وطول المعرفة فتتعرى أمامه النفوس، وتنسلخ من ثكلـتها وتصـنعها، وتنـزعج مـن ذهـولها وركـودها وتجـد نفسـها أمام الله -جل شأنه- يحـيطها ويعلمها ويؤدبها فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلن العميق إلا أن تخشع وتصيخ »(22).

ثـم يقـول: « وكمـا قهـر القـرآن نوازع الجدل في الإنسان وسكن لجاجته، تغلب

21- نظرات في القرآن، الشيخ محمد الغزالي 124

22- المصدر نفسه 127-129

علـى مشـاعر الملـل فـيه وأمده بنشاط لا ينفذ والجدل غير الملل، هذا تحرك ذهني قد يحد الأوهام ويحولها إلى حقائق وهذا موات عاطفي قد يجمد المشاعر فما تكاد تتأثر بأخطـر الحقائق وكثير من الناس يصلون في حياتهم العادية إلى هذه المنزلة من الركود العاطفـي فـنجد لديهم بروداً غريباً بإزاء المثيرات العاصفة، لا عن ثبات وجلادة بل عن مـوت قلـوبهم وشـلل حواسـهم والقـرآن الكـريم في تحدثه للنفس الإنسانية حارب هذا الملـل وأقصـاه عـنها إقصـاء وعمـل علـى تجديـد حياتهم بين الحين والحين، حتى أنه ليمكـنها أن تسـتقبل في كـل يـوم ميلاداً جديداً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]»[23].

ومـن وسـائل القرآن التأثيرية: الترغيب والترهيب، حيث يقول الشيخ: «والشعور بالـرغبة والرهبة والرقة تعمرك وأنت تستمع إلى قصص الأولين والآخرين تروى بلسان الحق ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم والمغازي والعبر تقشعر منه الجلود»[24].

ويتـبين لـنا أنه تناول الإعجاز التأثيري من جوانب أربعة ولعل أهمها جميعاً هو بـيان مـا في القـرآن من وسائل تأثيرية والتي أورد فيها تفصيلاً وتعليلاً لم نره عند كثير من السابقين.

سيد قطب ورأيه من تأثير القرآن الكريم

يقـول سيد قطب عن تأثير القرآن الكريم: «إن في هذا القرآن، سراً يشعر به كل مـن يـواجه نصوصـه ابـتداء، قـبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسلطان خـاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصراً ما ينسكب في الحسن بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً ولكنه على كل حال موجود

هـذا العنصـر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهـو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميـز مـن إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنهـا هـي وشيء آخر وراءها غير محدود؟ ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كـل مـن يـواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر

23- نظرات في القرآن، الشيخ محمد الغزالي 127-129
24- المصدر نفسه 128

والتفكير في بناء القرآن كله»[25].

إن سر تأثير القرآن في النفس البشرية فيه كله، فكل جوانب العظمة والسمو فيه، ألفاظه، ومعانيه، وصوره، وظلاله، وإيقاعه، وأسلوبه، وشيء آخر بالإضافة إلى كل ذلك. ويقول رحمه الله: «للقرآن تأثير عجيب على النفوس وسلطان قوي على القلوب ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب العزيز، يبقى ذلك السلطان الذي له على الفطرة متى خلي بينه وبينها لحظة وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب وثقل فوقها الركام تنتفض قلوبهم أحياناً وتتململ، وتحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن. إن الذين يقولون كثيرون، وقد يقولون كلاماً يحتوي على مبادئ ومذاهب وأفكار واتجاهات، ولكن هذا القرآن ينفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول، إنه قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب»[26].

إن للقرآن سراً خاصاً على النفوس حتى يبلغ أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون العربية، وعلى العوام الذين يسمعون إلى تلاوته لا يطرق عقولهم منه شيء، لكن يطرق قلوبهم إيقاعه ويظهر على ملامحهم سره: إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن،، وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن كلما تفتح القلب، وصف الحس، وارتفع الإدراك، وارتقت حساسية التلقي والاستجابة، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان[27].

ولذلك نرى سيد قطب رحمه الله تعالى قد تناول الإعجاز التأثيري حيث بين ما للقرآن الكريم من وسائل وقوة تأثيرية كبيرة على النفوس المؤمنة وغير المؤمنة.

المبحث الثالث: الإعجاز التأثيري

من خلال الآيات القرآنية وبعض المواقف من السيرة النبوية

إن تأثير القرآن الكريم في القلوب قد بلغ مبلغاً عظيماً لم يعرف قبله ولا بعده كلام قط، إذ تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم روعة وخشية وتعتريهم هيبة وتهيمن عليهم

25- في ظلال القرآن 6 /3399

26- المصدر نفسه 3 /1421

27- المصدر نفسه 5 /285

عظمته، ونرى آثاره على الجاحدين أبلغ وأظهر، إذ يقرعهم عن ضلالهم ويقيم عليهم حججاً لا معقب لها فيستثقلون سماعه ويتولون عنه بنفور مدبرين كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ [الإسراء: 41] وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ [الإسراء: 46].

وإن الإقرار بالعجز أمام اختيار آيات قرآنية معينه مؤثرة في النفس البشرية دون سواها من آيات القرآن الكريم أمر لا يعد نقصاً في البحث أو الباحث، فقد يتأثر بعضهم بآية تتحدث عن القدرة الإلهية في الكون والحياة، وقد يتأثر الآخر بما ذكره الله في حياته من النعيم والجنان وما أعده الله للمؤمنين، ويتأثر ثالث بآية تتحدث عن النار والجحيم والسعير، ويتأثر رابع بالحقائق التاريخية الصادقة، وخامس يتأثر بالبلاغة المعجزة والكلمة الرقيقة، وسادس يتأثر بالأسس الشرعية المحكمة في مجال الحكم والأسرة والمجتمع وغير ذلك.

وهكذا فالقرآن لا يترك نفساً إلا ويتحدث معها عن ملكة من ملكاتها المتعددة، سواء أكانت فكرية عقلية أم وجدانية عاطفية أم سياسية أم عسكرية إلى غير ذلك، ويأخذ هذا التأثير أشكالاً متباينة أحياناً أو منسقة أحياناً أخرى، فتأثر المشركين والكافرين غالباً نفور وإعراض، أو إلقاء للحجج الواهية التي يقصدون بها التعجيز لقارئه أو النيل من النص القرآني نفسه كما نرى عند اليهود والمنافقين ومن شاكلهم. ويظهر تأثر المنافقين بالقرآن في صورة خوف وحذر وتربص كذلك؟

وأما مع المؤمنين: فيختلف مظهر التأثر فكلهم يرق قلبه، وينشرح صدره، وتفيض عيناه بالدمع، دلالة على الاستسلام والإيمان، والعجز عن التعبير عما يجده في جوانحه مع حالة نفسية جديدة لا عهد له بها، ومن هنا تأتي صعوبة الانتقاء لآيات قرآنية أكثر تأثيراً دون سواها إذ يتوقف ذلك على حالة المتلقي -أيضاً- واستعداداته النفسية، وثقافته العلمية ومذاقاته الوجدانية وما إلى ذلك.

مظاهر أثر القرآن الكريم على المؤمنين

عندما نتتبع أثر كلام الله تعالى -القرآن الكريم- فيمن سمعه وتدبره من البشر فإننا نجد أن أول من يتأثر بكلامه هم من تلقوه، وكلفهم الله ببلاغه للبشر وهم الأنبياء والرسل، ولذلك يقول الله تعالى بعد أن تحدث عن بعض الأنبياء والرسل في سورة مريم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ

﴿وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ [مريم: 58]. فهؤلاء إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، و﴿بُكِيّاً﴾ جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم وإثباتا لمنوالهم، ولما قرأ عمر بن الخطاب ﷺ سورة مريم سجد وقال: «وهذا السجود فأين البكيّ؟، يريد البكاء»[28].

وجاء في الظلال «أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم صفتهم البارزة ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكياً»[29].

ويقول أبو السعود «هنا بيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه خروا ساجدين باكين»[30]. والسجود حركة ظاهرية، تعبر عن أعلى وصدق درجات الانقياد والاستسلام والتذلل للمسجود له، وأما البكاء فهو تنفيس عن انفعالات داخلية شديدة يعجز صاحبها عن التعبير عنها فتعبر عيناه بالدمع، وكان رسول الله محمد ﷺ أول المتأثرين بالقرآن الكريم تأثراً باطنياً وظاهرياً وكفى سلوكه شاهداً على ذلك وبرهاناً عليه. فقد روى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء والأزيز: صوت الرعد وغليان القدر»[31].

وما رواه الأئمة عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «قال النبي ﷺ: اقرأ علي، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: 41] فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان»[32].

والمواقف والمواضع التي تبرز تأثر رسول الله ﷺ بالقرآن كثيرة، بيد أن ذلك يعد أمراً لا غرابة فيه، ولا إعجازاً، إذ كيف لا يتأثر الرسول ﷺ -بالقرآن- وعليه أنزل وقد

28- تفسير ابن كثير 3 /127
29- في ظلال القرآن 4 / 2314
30- تفسير أبى السعود 5 /271
31- تفسير القرطبي 1 /13
32- أخرجه البخاري رقم 5049، ومسلم 2 /195

رأى الملائكة وعرج به إلى السماء وسمع صرير الأقلام، ورأى من آيات ربه ما رأى؟ فتأثره بالقرآن العظيم أمر لا يحتاج إلى دليل أو برهان، وكان ﷺ يحرص أن يغرس في أتباعه من المسلمين التأثر بالقرآن عند تلاوته فقد أمر المسلمين بالبكاء عند تلاوته، فإن لم يجدوا بكاء فليتباكوا[33] وامتثل المؤمنون لتوجيه الرسول ﷺ ففتحوا آذانهم وقلوبهم لآيات الله، لتعمل فيها عملها، تؤثر فيها ما شاء الله لها من تأثير، وحال بينهم وبين كل ما من شأنه أن يمنع قلوبهم من التأثر بالقرآن ولنذكر بعض الآيات التي لها أثر كبير في التأثير في النفوس والتي عبرت عن ذلك الأثر وأظهرته.

وجل في القلوب

لقد حاز المؤمنون عند ربهم درجة عالية رقيقة لتأثرهم بالقرآن الكريم، تأثراً عملياً صادقاً، له نتائجه في واقع حياتهم وحياة مجتمعهم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

ولنا هنا بعض الملاحظات:

الملاحظة الأولى: ما هي حقيقة التأثر بذكر الله وتلاوة القرآن الكريم؟

هذه الحقيقة تتحدث عنها الصحابية أم الدرداء من خلال تجربة عاشتها متأثرة بآيات القرآن الكريم، فوجل قلبها، فقالت تصف هذا الوجل: «الوجل في القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال بلى، قالت: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك»[34]. يقول سيد قطب: «إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر الله في أمر أو نهي، فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافتة، ويتمثل عظمة الله ومهابته إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة»[35].

الملاحظة الثانية: ما هي مظاهر تأثرهم بالقرآن؟

يقول سيد قطب مبيناً هذه المظاهر: «والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما

33- الترغيب والترهيب 2 /339 وانظر تفسير المنار 5 /110

34- فتح القدير 2 /286، وانظر: في ظلال القرآن 3 /1475، وانظر: تفسير المنار 9 /589، وانظر: تفسير ابن كثير 3 /279

35- في ظلال القرآن 3 /147

يـزيده إيمانـاً، ومـا ينتهـي بـه إلى الاطمئـنان» إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا واسطة ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه فإذا رفـع هـذا الحجـاب بالإيمـان وجـد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيـادة في الإيمـان تـبلغ إلى الاطمئـنان، وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيماناً، فإن القلب المؤمن وهو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيماناً[36].

اطمئنان القلوب

إن اطمئنان القلوب مرحلة تأتي بعد إيمان عميق، وسماع واعٍ وتدبر للقرآن فإذا عاشـت القلـوب على هذا المنوال تصل إلى مرحلة من الاطمئنان إلى وعد الله في كتابه الـتي لا تحركه الزلازل، إنها القلوب المطمئنة التي بلغ فيها القرآن مبلغاً من التأثير فقال تعـالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. «أي هـؤلاء تطمـئن قلـوبهم على الدوام بذكر الله لأنها تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن» وقـال مجاهـد وقـتادة: «تطمـئن قلوبهم بالقرآن الكريم»[37]. يقول الألوسي: إن قلوبهم تسـتقر وتسـكن بذكـر الله أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسبب اطمئنان قلوبهم بذلك علمهم أن لا آية أعظم[38].

ويقـول سـيد قطـب: «تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانـبه وفي حمـاه تطمـئن مـن قلـق الـوحدة وحـيرة الطـريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل خروق ومن كل شر إلا بمـا شـاء، ألا بذكـر الله تطمئن القلوب. ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقـيقة عمـيقة يعـرفها الـذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاتصلت بالله يعرفونها ولا يملكـون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها لأنها لا تنقل بالكلمات، إنمـا تسـري في القلـب فيسـتروحها ويهـش لهـا ويـندي بهـا ويسـتريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام»[39].

36- في ظلال القرآن 3 /1475

37- تفسير القرطبي 9 /256، وانظر: جامع البيان، ابن جرير الطبري 9 /25

38- روح المعاني 13 /149، وانظر: القرآن يقوم العقل والنفس واللسان ص30، وانظر: الأساس في التفسير 5 /2755

39- في ظلال القرآن 4 /2060

إن النفس البشرية بحاجة إلى الاطمئنان في الأمور الهامة: فهي تريد الاطمئنان بعد الحياة ماذا بعد الحياة؟ يجيب القرآن على ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 19-24].

هكذا يجيب القرآن على هذا التساؤل الداخلي في النفس الإنسانية، فيضع أمامها الحقائق في يسر وسهولة، وتأثير بالغ فتطمئن إلى ما تعلمه، إن كان خيراً، فموت، ثم بعث ثم حساب ثم جنه، وإن كان شراً فموت، ثم بعث، ثم حساب ثم نار. إذا فلا طريق إلى طمأنينة القلوب وسعادتها وأنسها وبهجتها إلا بذكر الله لا يغيره فالسبب الوحيد لطمأنينة القلوب وشفائها من أمراض وزوال قلقها ووحشيتها هو ذكر الله.

ذكر الله بمدلوله الواسع الشامل لكل ما يذكر الله أو يُذْكر الله به، ما يذكر الله من العلوم النافعة والأدلة القاطعة في الآيات البينات الناطقات أو المشاهدات، وما يذكر به الله من سائر الأذكار والعبادات، وإقامة الأحكام والمعاملات على شرع الله. ويجمع ذلك العلم بما نزل الوحي والعمل به فذلك هو الطريق إلى طمأنينة القلوب وسعادتها في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى مشيراً إلى هذه الحقيقة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: 123-126][40].

سجود وخشوع

ويزداد أثر القرآن الكريم في النفوس فيجعلها طيعة لأوامره، منقادة لإشارته مستلهمة لما فيه تخشع أجسادهم في سجود، وتلهج ألسنتهم بذكر الله، وتنفطر أقدامهم في قيام الليل والناس نيام، وتفيض أنفسهم قبل أيديهم بالإنفاق في سبيل الله. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 15-16].

قال ابن كثير: « إنما يؤمن بآياتنا أي يصدق بها الذين استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون عن اتباعها والانقياد لها. تتجافى جنوبهم عن المضاجع: يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة

40- انظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة 383

يدعون ربهم خوفاً من وبال عقابه وطمعاً في جزيل ثوابه »(41).

ويقـول سـيد قطـب: « وهي صورة وضيئة للأرواح المؤمنة اللطيفة المرتجفة من خشية الله وتقواه المنحنية إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء، في غير ما استعلاء ولا استكبار، هـذه الأرواح هـي الـتي تـؤمن بآيـات الله وتـتلقاها بـالحس المتوفـر والقلـب المسـتيقظ والضـمير المسـتنير. هـؤلاء إذا ذكـروا بآيـات ربهم ﴿خَرُّواسُجَّداً﴾ تأثراً بما ذكـروا بـه، تعظـيماً لله الـذي ذكـروا بآياتـه وشعوراً بجلاله الذي يقابل بالسجود أول ما يقابل »(42).

هـذه أهم مظاهر تأثرهم بالقرآن الكريم إذا سمعوا آياته سجود سريع، وتواضع واسـتكانة، وقـيام في الليل، يخافون العذاب يطمعون في الثواب وكل هذه خلال لذواتهم وتـزكية لنفوسـهم وأما لغيرهم ولمجتمعهم، فقد أثر القرآن في تصرفهم، فجعل أيديهم سـخية بالإنفـاق مما رزقهم الله. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديـد: 16]. ويقـول إسماعـيل البرسـوي « ألم يجيء وقت أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى وتطمئن به ويسارعوا إلى طاعته والامتثال لأوامره والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان ولا فتور »(43).

قشعريرة الجلود

يقـول الله تعـالى عـن القـرآن العظـيم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمـر: 23]. فالقرآن بشهادة الحق تبارك وتعالى أحسن الحـديث وهو الذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكـر الله، وهـو هـدى الله عز وجل يهدي به من يشاء من عباده وأما الذين يصدفون عن آيـات الله ويتركـونها وراء ظهورهم فقد قال الله فيهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157](44).

ويقول د. وهبة الزحيلي: « إن الله نزل أحسن الحديث وهو القرآن الكريم لما فيه

41- تفسير ابن كثير 3 /459
42- في ظلال القرآن 5 / 2812
43- روح البيان 4 /237
44- القرآن أنواره وآثاره وأوصافه، محمد محمود الصواف 78

من الخيرات والبركات والمنافع العامة والخاصة، وهو كتاب يشبه بعضه بعضاً في مجال النظم وحسن الأحكام والإعجاز إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وتضطرب النفس وترتعد بالخوف مما فيه من الوعيد ثم تسكن وتطمئن عند سماع آيات الرحمة»[45].

وورد عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: «كان أصحاب النبي ﷺ إذا قريء عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قريء عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشياً عليه»[46]. وقال ابن كثير: «فهذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار لما يفهمونه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: إن سماع هؤلاء، هو تلاوة الآيات وسماع أولئك، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات.

الثاني: إنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة هؤلاء لم يكونوا عند سماع الآيات متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلذا إنما يعلمون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: إنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ﷺ عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب الخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة»[47].

إن مسألة التأثير غير قاصرة على القرآن ولا على المؤمنين به وإنما قد تحدث من كل ما يسمعه الإنسان ويعقله، ولكن كل مؤثر وله نتائجه في حياة الأفراد والمجتمعات.

45- التفسير الميسر، وهبة الزحيلي 23 /279

46- تفسير روح المعاني 9 /165، وانظر: تفسير القرطبي 7 /298

47- تفسير ابن كثير 4 /52، وانظر: الأساس في التفسير 9 /4880

بكاء ودموع

قـال الله تعـالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائـدة: 82-83]. يقول سيد قطب: « فهذا مشهد حي يرتسم من التصور القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا، إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسـول مـن هـذا القـرآن اهتـزت مشاعرهم ولانت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع تعـبيراً عـن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوا، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفـاء مـن التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثـر درجـة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع ليؤدي مالا يؤديه القول وليطلع الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف.

ثـم هـم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثـروا بـه هـذا التأثر عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق، إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً موقف القبول لهذا الحـق والإيمـان بـه والإذعـان لسـلطانه وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية صـريحة عمـيقة »[48]. السـكينة تنزل على قارئ القرآن تحملها إليه الملائكة سواءً أكان فرداً أم جماعة.

ويسـتحب الـبكاء عـند تلاوة القرآن، يقول الغزالي: « البكاء مستحب مع القراءة، والطريق في تحصيله أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمل ما في القرآن من الوعيد والتهديد والمواثـيق والعهـود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضر حزن وبكاء كما يحضر الخواص فليبك على فقد ذلك منه، فإنه من أعظم المصائب »[49].

وروي عن محمد بن المنكدر أنه بينما هو ذات ليلة يصلي بكى وكثر بكاؤه، ففزع أهلـه فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى صاحبه أبي حازم، فجاء إليه فإذا هو يبكي، فقال له يا أخي: ما الذي أبكاك؟ قال رعت أهلك؟ فقال: مرت بي آية من كتاب الله عز وجل، قال ما

48- في ظلال القرآن 2 /962، وانظر: تفسير المنار 7 /12

49- بالقرآن أسلم هؤلاء 31

هي؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47] فبكى معه أبـو حـازم معه واشتد بكاؤهما، وكان أبو بكر رقيق القلب إذا قرأ القرآن لا يملك عينيه من البكاء.

وصـلى عمـر بـن الخطـاب الصبح إماماً بالناس، فقرأ سورة يوسف، فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته وسمعوا بكاءه من وراء الصفوف[50]. والأمثلة على ذلك كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلها.

ويسـتحب البكاء عند قراءة القرآن والتباكي لمن لا يقدر عليه والحزن والخشوع قـال تعـالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسـراء: 109]. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسـعود ﷺ قال: «قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ عليّ القرآن، قال: فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أستشني أن أسمعه من غيري، فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: 41] رفعت رأسي أو غمزنـي رجل إلى جنبي فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل»[51]. وقد وصف الله تعالى الـذين أنعـم الله علـيهم من النبيين بقوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ [مريم: 58].

وقـال الألوسـي: «أي إن قلـوبهم فـزعت اسـتعظاماً لشـأنه الجلـيل وتهيباً منه جل وعـلا»[52] وقـال القـرطبي: «إن الله وصـف المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكـره وذلـك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه»[53]. وهكذا كان حال سلفنا الصـالح -رضـوان الله علـيهم- إذا سمعـوا آيـات الله تتلـى عليهم أصغوا سمعهم، وفتحوا قلوبهم، فتخشع الجوارح، وتلين الجلود، وتقشعر الأبدان، وتبكي العيون من خشية الله.

أثر القرآن الكريم في النفوس

الأمثلة والنماذج على تأثير القرآن الكريم في النفوس عديدة على اختلاف الزمان والمكان، سواء أكانت النفوس كافرة أم مؤمنة، وسواء أكانت نفوس عرب تعرف العربية

50- بالقرآن أسلم هؤلاء 22-24

51- البخاري، الفتح 8 /4582، مسلم 800.

52- روح المعاني 13 /149، وانظر: القرآن يقوم العقل والنفس واللسان 30

53- تفسير القرطبي 9 /256، وانظر: جامع البيان 9 /25.

لغة القرآن الكريم وتتذوقها أم كانت نفوس أعاجم لا تكاد تعرف من العربية شيئاً.

ونقدم فيما يلي نماذج لثلاثة أصناف أثر فيهم القرآن الكريم: الكافرون، والمؤمنون وغير العرب:

أولاً: تأثير القرآن في نفوس الكفار

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26]. يروي التاريخ أن الإحساس بتأثير القرآن الكريم كان يجذب رؤساء هؤلاء المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة النبي ﷺ في بيته، على ما كان من نهيهم عن سماعه وتواصيهم بذلك.

يروى أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس به شريق كان كل واحد منهم يأتي من ناحية على غير موعد إلى حيث يستمعون من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق وتلاوموا، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل واحد منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس ذهب إلى أبى سفيان يسأله عما سمع فقال خيراً، ثم خرج حتى أتى أبا جهل فدخل عليه فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ﷺ فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه(54).

54- سيرة ابن هشام 1 /337-338، الموسوعة القرآنية الميسرة 1 /85، الإعجاز القرآني وجوهه وإعجازه 44، وانظر: إعجاز القرآن البياني، د. صلاح الخالدي 493، المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد أبو شهاب 373

الوليد بن المغيرة

وهـذا هـو الوليد بن المغيرة وهو من أعتى المشركين وأشدهم أذى على رسول الله ﷺ يأتـي إلى رسـول الله ﷺ فيقـرأ علـيه القـرآن، فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الـنحل: 90] فقـال لـه: أعد، فأعاد النبي ﷺ، فقال الوليد قولته: « والله إن له لحلاوة وإن علـيه لطـلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر ». فكأنما رق له، فـبلغ ذلـك أبا جهل فأتاه وقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قـال: لـيعطوكه، فإنـك أتـيت محمداً لتعرض ما قبله! قال: علمت قريش أني من أكثرها مـالاً، قال: فقل في القرآن قولاً: أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم أحد ألهم بالأشـعار مـني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ثم يقول في وصفه مقالة التأثرية المفتون بجماله المستسلم لإعجازه: « والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما هو من قول البشر »[55].

فـإذا كـان هـذا تأثير القرآن في مشرك حتى يستشعر هذه الطلاوة وتلك الحلاوة فكـيف بمسـلم عمـر قلـبه بالإيمـان وأشـرقت نفسـه بنور القرآن. ولقد صدق الوليد بن المغـيرة، فأقـره جمـيع المشركين الذين جاءوا للتداول في أمر رسول الله ﷺ وكيف لا؟ وجمـيعهم يشعر بنفس شعور الوليد، ويحس بأحاسيسه فلم يمنعهم كفرهم ولا كبرهم وغرورهم من الاعتراف بهذه الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها.

عتبة بن ربيعه

عتـبة بـن ربـيعه مـن سادة قريش، كان سيداً حليماً، ترسله قريش إلى محمد ﷺ وسـلم ليفاوضـوه باسـم المشـركين مـن قـريش ولـيكون لسانها المعبر وعقلها المفكر. أرسلته قريش إلى رسول الله ﷺ ليساومه على أن يدع ما هو عليه ويترك دعوته على أن يقدموا له ما شاء فيعرض عليه الطب إن كان ما يأتيه من قبيل الوساوس والجنون.

55- المـدخل لدراسة القرآن 1 /294، وانظر: الإعجاز القرآني ووجوهه وأسراره 47، والمعجزة القرآنية 36، السيرة النبوية لابن هشام 1 /294، المعجزة الكبرى القرآن 67، إجمال البيان في مباحث علوم القرآن 214.

استمع الرسول ﷺ إلى عروضه السخية، حتى إذا فرغ قال له رسول الله ﷺ: أوقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم قال: فاسمع مني قال: أفعل فقال رسول الله ﷺ: « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: 1-5]. فلما سمعها عتبة أنصت إليه، وألق يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد وسجد معه عتبة ثم قال له: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس قالوا: ما وراءك قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. قالوا: سحرك بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم[56]، وهذا اعتراف آخر من أبي الوليد أمام سادة قريش وكبرائهم بإعجاز القرآن الكريم وأثره في النفوس والقلوب والجوارح.

وهذه بالجملة اعترافات أساطين قريش وسادتها والكل يلهج بكلام واحد وقد تصور تصوراً واحداً ألا وهو أن القرآن الكريم ليس من صنع البشر وأنه معجز لا قبل لهم بمعارضته بل أن كل من يسمعه منهم يخفق له قلبه وتنفعل به أحاسيسه ويحن إلى سماعه المرة تلو الأخرى، لا يستطيع أن يفطم نفسه عنه. ولذلك كان النفر من قريش يتعاهدون على عدم سماع القرآن حتى لا يتأثروا به ويذهبون إلى بيوتهم إلا أن الواحد منهم لا يلبث أن يرجع إلى الكعبة ليسمع القرآن الذي ملك عليه عقله وقلبه فيجد أن صاحبه الذي قد عاهده، قد سبقه إلى العودة لسماع القرآن المعجز ندياً من صوت محمد ﷺ، فيجتمعان أمام الكعبة وكل منهم قد نقض ما عاهد عليه صاحبه وحق لهم ذلك. فمن ذا الذي يرى المعجزة ويملك نفسه أن لا يتأثر بها؟ إذ لو كان الناس يملكون هذا لما كان للمعجزة ذلك الأثر.

لم يكن من المشركين إزاء هذا التأثر العظيم بالمعجزة القرآنية إلا إنهم بدءوا

56- الموسوعة القرآنية الميسرة 1 /54، وانظر: المعجزة القرآنية 37، الإعجاز القرآني ووجوهه وأسراره 49، انظر من أوجه إعجاز القرآن الكريم 57، المعجزة الكبرى، القرآن، محمد أبو زهرة 67، انظر: إجمال البيان في مباحث علوم القرآن 215.

يعلنون إسلامهم الواحد تلو الآخر، مما أثار حفيظة المشركين، وجعلهم يفكرون بالوسائل التي يمكن بواسطتها التخفيف من أثر المعجزة القرآنية، فاتفقوا على أن لا يسمعوا للقرآن ولا يمكنوا أحداً من سماعه خشية أن يتأثروا بإعجازه ويستجيبوا لهديه، كما اتفقوا على أن يلغوا في القرآن إذا قرأه رسول الله ﷺ حتى يشوهوا فيما يزعمون جماله، ويذهبوا برونقه ويشوشوا على الناس لمنعهم من الإنصات له، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26].

إلى هذه الدرجة كان لسماع القرآن الكريم أثره في نفوس أعدائه، فهم يتشاغلون عنه ويتلهون بغيره، ويتعاهدون فيما بينهم على عدم الاقتراب من تاليه،حتى لا يصل آذانهم، حتى إذا وقع بعضهم في ذلك –قاصداً أو ناسياً– لاموه وعنفوه وقالوا له: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: 3]. إلا أنهم رغم هذا لم يفلحوا، بل ربما كان الأمر على نقيض مرادهم، فجمال القرآن لا يمكن تشويهه وإعجازه لا يمكن إخفاؤه، فالشمس في رابعة النهار لا يمكن أن تحجب بكف أحمق.

ثانياً: تأثير القرآن الكريم في نفوس العرب

الأمثلة على تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين عديدة، على مدار التاريخ الإسلامي، وفي مقدمة الذين أثر فيهم القرآن، من نزل على قلبه القرآن محمد ﷺ الذي كان يتأثر وهو يتلو القرآن، ويتأثر وهو يسمع القرآن، ويبدو التأثر دموعاً غزيرة تذرفها عيناه الشريفتان.

ومن الأمثلة على تأثره لسماع القرآن، وبكائه لسماع القرآن: «ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ اقرأ عليّ قلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت على هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41] فقال: حسبك الآن ... فإذا عيناه تذرفان»(57).

ولقد أثر القرآن الكريم في نفوس الصحابة تأثيراً عظيماً قادهم إلى الانتقال من الشرك والكفر والجاهلية إلى الإسلام. ومن أوضح الأمثلة على ذلك عمر بن الخطاب الذي كان سبب إسلامه سماع القرآن الكريم.

57- الدر المنثور، السيوطي 2 /541، وانظر بالقرآن أسلم هؤلاء 21، والحديث متفق عليه سبق تخريجه.

1. تأثير القرآن الكريم في عمر بن الخطاب

لقد كان عمر بن الخطاب كثير الإيذاء للمسلمين إذ دفعه حقده وحدته لأن يعتزم على قتل رسول الله ﷺ، وقد بلغه أنه مجتمع مع أصحابه في بيت عند الصفا ويروي رضي الله عنه قصة إسلامه إذ يقول: كنت للإسلام مباعداً وكارهاً ومحارباً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأحرص على شربها وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش على شربها.

فأرقت في ليلة من الليالي وخرجت أريد جلسائي في مجلسهم ذلك، فلم أجد أحداً، فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار لعلي أجد عنده، فجئته فلم أجده، فقلت لو أني ذهبت إلى الكعبة فطفت بها مسبقاً، فجئت الكعبة لأطوف بها فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي ... فقلت حين رأيته لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول. ثم قلت في نفسي: لئن دنوت منه لأروعنّه، فابتعدت عنه، وجئت الكعبة من جهة حجر إسماعيل ودخلت تحت ثيابها، وجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة! ثم سمعت القرآن، رق له قلبي فبكيت ودفعني إلى الإسلام، ولم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته وأسلمت[58].

وهناك رواية أخرى لإسلام عمر وهي أنه بلغه أن رسول الله ﷺ مجتمع مع أصحابه في بيت عند الصفا، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرّق بين أمر قريش، وسفه أحلامها ولما في دينها فأقتله. فقال له نعيم: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي قال: خنتك، وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما. فرجع عمر إلى أخته و زوجها، وكان عندهم خباب بن الأرت معه صحيفة فيها سورة طه يقرؤونها، فلما سمعوا حسّ عمر،اختبأ خباب في بعض البيت وخبأت فاطمة الصحيفة، وكان عمر قد سمع شيئاً من القراءة حين دنا من البيت. فلما دخل قال: ما هذه التي سمعت؟ قالا له ما سمعت شيئاً. قال: بلى ... ولقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بسعيد فقامت إليه فاطمة تدافع عن زوجها فلطمها حتى سال الدم من وجهها وعندئذ قالت فاطمة وزوجها له: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله،

58- السيرة النبوية لابن هشام 1 /371-373، القرطبي 6 /163

فاصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته ندم على ما صنع وقال لأخته أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ووعدهما أن يردها عليهما إذا قرأها، فلما طمعت أخته في إسلامه، قالت له: يا أخي إنك نجس، على شركك وإنه لا يمسه إلا المطهرون. فقام عمر وأغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: 1-6]. فلما قرأ عمر الآيات المكتوبة في الصحيفة، هدأت ثورته، وذابت حدته، وسطع أمامه نور المعجزة بما لا يستطع دفعه وقال لما قرأ ذلك: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه[59].

لقد انفعلت نفس عمر بهذا الكلام، كيف لا؟ وهو العربي القرشي الذي يتذوق العربية ويتمايل لسماعها طرباً، وما كان منه إلا أن قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه» وما كان منه إلا أن ذهب إلى رسول الله ﷺ ولكن لا ليقتله هذه المرة بل ليعلن إسلامه وليضيف إلى التاريخ حادثاً من أهم الحوادث في تاريخ المعجزة القرآنية.

لما فتح عمر بن الخطاب ﷺ قلبه للقرآن، دخلت أنواره قلبه، وبددت منه ظلمات الكفر فتأثر بالقرآن وخشع، ورق له قلبه، وبكى من التأثر والخشوع وأعلن إسلامه ﷺ.

2. أثر القرآن الكريم في الطفيل بن عمرو الدوسي

الطفيل بن عمرو الدوسي شاعر شريف لبيب، صفات تجمع بين الذكاء العقلي الحاد والإحساس الوجداني المرهف إضافة إلى شرف المكانة العالية في قبيلته، فجاء مكة فقابله رجال من مشركي مكة وسادتها وحذروه من السماع من محمد ﷺ خشية أن يؤمن به، إلا أن النتيجة كانت على عكس ما رموا إليه وأرادوه، لأن ما أثر في نفوسهم لا بد أن يؤثر في نفس الطفيل وغيره، من كل من عقل كلام العرب وتذوقه.

يقول الطفيل: كنت رجلاً شاعراً سيداً في قومي، فقدمت مكة فمشيت إلى رجالات قريش فقالوا: يا طفيل: إنك امرؤ شاعر، وإنا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجل فيصيبك ببعض حديثه فإنما حديثه كالسحر فاحذره أن يدخل عليك وعلى قومك ما

59- الموسوعة القرآنية 1 /62، سيرة ابن هشام 1 /373، المعجزة القرآنية41، بالقرآن أسلم هؤلاء 101-107

أدخـل علينـا، فإنـه فرق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه،وبين المرء ودينه، فوالله ما زالوا يحدثوني في شأنه وينهوني عن أن أسمع منه حتى قلت: والله لا أدخل المسجد إلا وأنا سادّ أذني، فوضع قطناً ساداً أذنيه كي لا يسمع القرآن الكريم.

ودخـل الطفـيل إلى المسـجد الحرام، فإذا به يجد رسول الله ﷺ قائماً يصلي عند الكعـبة، فـاقترب مـنه، وأبـى والله إلا أن يسمعه بعض قوله، فسمع كلاماً حسناً فقال في نفسـه: والله إن هـذا للعجـز وإنـي امرؤ ثبت، ورجل شاعر لبيب، ما تخفى علي الأمور، حسـنها وقبـيحها، والله لأتسـمعن مـنه فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تـركته. فمكـثت حتـى انصـرف، فلـم أسمـع كلامـاً أحسـن من كلام يتكلم به، فقلت يا سـبحان الله مـا سمعـت كاليوم لفظاً أحسن ولا أجمل منه. انصرف الرسول ﷺ إلى بيته وتبعه الطفيل حتى دخل بيته ثم قال له: يا محمد! إن قومك جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا فأخـبرته بمـا قالوا ثم أبى الله إلا أن أسمعني منك ما تقول، وقد وقع في نفسي أنه حق فأعرض على دينك، فعرض علي الإسلام فأسلمت[60].

3. تأثير القرآن الكريم في سيد قطب

نموذج آخر لتأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين، أنه سيد قطب الذي يحدثنا عـن تأثير القرآن الكريم في نفسه، يقول رحمه الله عند تفسيره لسورة النجم: « كنت بين رفقـة نسـمر حيـنما طـرق أسماعـنا صـوت قـارئ للقرآن من قريب يتلو سورة النجم، فانقطـع بينـنا الحـديث لنسـتمع وننصت للقرآن الكريم وكان صوت القارئ مؤثراً وهو يـرتل القرآن ترتيلاً حسناً. وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه، عشت مع قلب محمد ﷺ في رحلـته إلى المـلأ الأعلـى، عشـت معـه وهـو يشـهد جبريل عليه السلام، في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها.

ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله! وعشت معه وهـو في رحلـته العلـوية الطلـيقة، عند سدرة المنتهى، وجنة المأوى، عشت معه بقدر ما يسـعفني خيالـي، وتحلـق بـي رؤاي، وبقـدر مـا تطيق مشاعري وأحاسيسي، وتابعته في الإحسـاس بـتهافت أسـاطير المشـركين حـول الملائكـة وعـبادتها وبـنوتها وأنوثتها ...! ووقفـت أمـام الكـائن البشري ينشأ من الأرض وأمام الأجنة في بطون الأمهات وعلم الله

60- السيرة النبوية 1 /428، سير أعلام النبلاء 2 /344، وانظر المعجزة القرآنية 40، أسد الغابة 3 / 81-78

يتابعها ويحيط بها.

وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتالية في المقطع الأخير من السورة، الغيب المحجوب لا يراه إلا الله، والعمل المكتوب لا يندّ ولا يغيب عن الحساب والجزاء، والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد. والحشود الضاحكة، والحشود الباكية، وحشود الموتى، وحشود الأحياء، والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكراً أو أنثى، والنشأة الأخرى، ومصارع الغابرين، والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى! واستمعت إلى صوت النذير الأخير مثل الكارثة الداهمة ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى أَزِفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: 56-58]. ثم جاءت الصيحة الأخيرة واهتز كياني كله أمام التبكيت المرعب ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: 59-61]. فلما سمعت الآية ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: 62] كانت الرجفة قد سرت في قلبي حقاً إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي، لم أملك مقاومته، فظل جسمي كله يختلج ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعاً هانئة لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة. وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب، إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن»(61).

أكتفي بهذا القدر من تأثير القرآن الكريم في قلوب المؤمنين وهناك من الأمثلة الكثيرة التي لا يفسح لها المقام.

ثالثاً: تأثير القرآن الكريم في نفوس غير العرب

كما أثر القرآن الكريم تأثيراً بليغاً في نفوس العرب كفاراً ومسلمين، وأثر في نفوس المسلمين من غير العرب، المؤملين به الخاشعين عند تلاوته، كذلك أثر في نفوس غير العرب من الذين لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً، وسأقف على بعض الشواهد لتأثير القرآن الكريم في بعض غير العرب الذين لا يعرفون شيئاً منها.

1. تأثير القرآن الكريم في شارون الأمريكية

لقد سجلت الفتاة الأمريكية (شارون) قصتها مع القرآن الكريم على الإنترنت، ونقلتها مجلة الفرقان الصادرة عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم في الأردن:

61- في ظلال القرآن 6 /3420-3421

تحدثت الفتاة الأمريكية (شارون) عن بداية حياتها مع أهلها، ومع الكنيسة والأناجيل والقساوسة وأنها كانت فتاة مشاكسة متمردة على الجميع، وحتى تحصل على الهدوء والطمأنينة طلبت من الله أن يرزقها رجلاً مسيحياً متديناً تتزوجه، فساق الله لها رجلاً فلسطينياً مسلماً قادها في النهاية إلى الإسلام، بعد أن حاربت الإسلام وقرآنه أولاً، لكنها تأثرت بالقرآن بعد ذلك ودخلت الإسلام.

قالت في رسالتها: « كان أول رجل طلبني للزواج فلسطينياً، وكان به عيبان لم أردهما في الرجل الذي سيتزوجني، كان عربياً، وكان مسلماً، لكنه على الرغم من ذلك كان يختلف عن أي رجل قابلته في حياتي، فلم يكن يشرب الخمر، وكان مستقيماً.

تزوجنا لكن زواجنا كان سيئاً للغاية، وقلت له بأن لا يناقش دينه معي أبداً فلم يفعل ذلك، وجعلت حياته بؤساً في البداية. وفي إحدى الليالي أحضر لي معه قرآناً، أعطاه لي قائلاً، هذا هو كتابنا المقدس وإنني أستطيع أن أقرأ فيه إن أردت! فرددت عليه قائلة: ضعه هناك فأنا لا أريد أن أقرأ فيه. وانتظرته حتى غط في نوم عميق ثم دعوت الله قائلة: يا إلهي: أرني إن كان هذا القرآن هو الحقيقة أم لا؟ فإن كان هو الحقيقة فسوف أقبله! ولكن أرني ذلك.

وفتحت القرآن عشوائياً وإذا بي أفتح على سورة العلق فقرأت قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5] فشعرت بعاطفة من نوع جديد تسري في عروقي. ثم فتحت القرآن عشوائياً على صفحة أخرى فإذا بي أقرأ قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6].

فجأة وللمرة الأولى كنت مدركة تماماً أنني أحمل بين يدي كتاباً في غاية القداسة وشعرت برهبة شديدة، فقد عرفت أنني أحمل بين يدي كلام الله، وعندئذ عرفت بأن الله لم يكرهني عندما أرسل إلي زوجاً مسلماً عربياً بل كان ذلك رحمة منه لكي أجد هذه المعجزة، وهذه الحقيقة التي طالما بحثت عنها. أحسست بسعادة تغمرني حيث وجدت الكنز أخيراً، وعرفت بأن الله منحني الرحمة لأنه قادني لأجد الحقيقة.

وفي تلك اللحظة شعرت بخجل شديد من نفسي لأني كنت في غاية السخرية تجاه خالقي وإلهي الرحيم وجلست متسمرة في مكاني لبعض الوقت، مبتهجة بكنزي الجديد وكانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً لكن هذا لم يهمني فقد وجدت المعجزة.

وركضت إلى زوجي لأوقظه قائلة: استيقظ أريد أن أقول لك شيئاً فاستيقظ وقال: عن أي شيء تتحدثين؟ قلت له: القرآن: ذلك الكتاب الذي أعطيتني إياه، إنه معجزة من الله!

لماذا لا تصرخون بأعلى صوتكم أيها المسلمون لتعلموا الناس كتاب الله؟ ابتسم زوجي قائلاً: القرآن الكريم كلام الله، وكل آية في القرآن معجزة! فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله »(62).

2. تأثير القرآن الكريم في الدكتور لويس أميليو بلسوني البرازيلي

الدكتور لويس طبيب أسنان برازيلي، ترجع قصة تعرفه على الإسلام إلى فترة دارسته في الجامعة في أوائل الثمانينات، وعلى الرغم من أنه نشأ في عائلة مسيحية كاثوليكية حرصت منذ البدء على تربيته على مبادئ الديانة المسيحية من خلال نشاطات الحي ومن خلال التحاقه بمدرسة ابتدائية كنسية فإن ذلك لم يكن عائقاً أمام النور الرباني الذي تسلل إلى قلبه.

لقد هاله عندما درس في الجامعة مادة الفنون الجميلة مقدار انتقال كثير من الفنون الإسلامية في المعمار والهندسة إلى الثقافة الغربية ثم عرف أن الثقافة الغربية قد نهلت كثيراً من المسلمين في مجالات أخرى متعددة تعرف عليها بعد أن أخذ حب القراءة في هذا الباب بشدة يوماً بعد يوم، لقد أدرك منذ البداية أن القرآن الكريم والنبي ﷺ هو سبب ذلك التغيير العميق في الحضارة الإنسانية على امتداد العصور.

فبعد دراسة متعمقة ومتواصلة بعد تخرجه من الجامعة امتدت لعشر سنوات أراد أن يسلك طريقاً أكثر قرباً من الإسلام فبحث عن مركز إسلامي في ضاحيته، وقرر أن يدرس اللغة العربية ويعرف المزيد عن القرآن الكريم بلغة القرآن مباشرة، ولم تطل الفترة، ففي خلال ثلاثة أشهر فقط أعلن الدكتور لويس إسلامه واختار أن يكون اسمه مركب من اسم النبي ﷺ فكان اسمه (محمد أمين) أنه لا يستطيع أن ينسى ذلك الشعور الذي هزه عندما سمع الشيخ يقرأ القرآن قبل دخوله في الإسلام على الرغم أنه لم يكن يفهم اللغة العربية حينئذ إلا أن القرآن الكريم كان يمس جزءاً ما في روحه. لقد أعلنها بسهولة: لا إله إلا الله محمد رسول الله وأصبح يحس ويرى ويسمع ويشعر بكل ذرة في كيانه معنى وحقيقة قوله تعالى: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15] ومنذ

62- مجلة الفرقان، العدد السادس، تموز 2000 ص 59-60

ذلك التاريخ بدأ يعنى بتعليم نفسه و أسرته الإسلام ويحاول أن يحفظ القرآن الكريم ويتعلم اللغة العربية، والتحق بحلقة الندوة العالمية للشباب الإسلامي لتعليم القرآن الكريم في (ساو باولوا) ودرس التجويد[63].

ما أعظم هذا الدين لو وجد له رجال يحملونه وينشرونه ويهدون به الضال ويرشدون به الحائر وما أشد حاجة الناس إليه، فهل من مشمر؟

رابعاً: أثر القرآن الكريم على المنافقين

لقد ترك القرآن الكريم أثره في نفوس المنافقين فصاروا يعيشون في خوف وحذر دائمين منه، لأنه يكشف عن خبيئة قلوبهم وينشر على المؤمنين ما أسره المنافقون وأبطنوه في طوايا نفوسهم يقول الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: 64-66]. إلى هذا الحد بلغ تأثير القرآن الكريم من نفوس المنافقين فهم يحذرونه حتى قبل أن ينزل، لأنهم أخفوا في قلوبهم أموراً، والقرآن سيكشفها بصدق لا مراء فيه.

وقد كان لهذه الآيات الكاشفة الفاضحة لطوايا نفوس المنافقين الخبثاء، والتي جعلته يسمي سورة براءة التي ذكرت فيها باسم (الفاضحة)[64] من شدة تأثيرها على بعضهم، وتفاعل مع ما تبقى من هشاشة الإيمان في قلوبهم، فأقلعوا عن النفاق. وجاء في تفسير ابن كثير: «كان رجل ممن شاء الله أن يعفو عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها، تقشعر منها الجلود، وتوجل منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد، أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت، قال فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا قد وجد غيره»[65].

لقد سأل المنافقون هذا السؤال العجيب الذي يتبين منه خوفهم الدائم على ما تخفيه قلوبهم أن يظهره القرآن ويكشفه يقول تعالى مصوراً حالهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي

63- مجلة المستقبل الإسلامي ص 52، العدد 116 مارس 2001 م

64- تفسير الطبري 3 /176

65- تفسير ابن كثير 1 /351

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 124-125].

سؤال غريب عجيب لا يقوله إلا الذي لم يستشعر وقع السورة المنزلة في قلبه وإلا لتحدث عن آثارها في نفسه بدل التساؤل عن غيره وهو في الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شأن السورة النازلة والتشكيك من أثرها في القلوب. لذلك يجئ الجواب الحاسم ممن لا راد لما يقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيمانا وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيمانا وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزال آياته عليهم فزادتهم إيمانا وأما الذين في قلوبهم مرض، أي الذين في قلوبهم رجس من النفاق، فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون، وهو نبأ من الله صادق وقضاء منه سبحانه محقق[66].

فأثر القرآن ومظاهر هذا التأثير واضحة في الفريقين: في المؤمن: زيادة في الإيمان واستبشار في الوجود، وفي المنافقين: زيادة في الرجس والشر والدنس، وخاتمة سيئة، وهو موت على الكفر.

فأثر القرآن مختلف في الفريقين حسب نوع المتلقي وما لديه من استعدادات لاستقبال المؤثرات القرآنية، أو موانع في أمراض القلوب المتنوعة، منها بالنسبة للتأثر بالقرآن كما يقول ابن كثير: « ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: 82] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44] وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم كما أن سيئ المزاج لو غذى بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً »[67].

خامساً: أثر القرآن على الجماد

القرآن له أثر عظيم لأنه كلام الله تعالى وهناك آيات تخبر عن أثر القرآن الكريم

66- في ظلال القرآن 3 /1742

67- تفسير ابن كثير 2 /384

على الجبال لو خاطبها الله به وآيات تبين أثر القرآن على القلوب المؤمنة التي تحمله. أما أثر القرآن الكريم على الجبال والجوامد فيما لو خاطبها الله به ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31].

يقول سيد قطب: « وهذا القرآن العميق التأثير، حتى تكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى، لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية. ولو أن الله أراد أن يكون القرآن هكذا، وأن يكون أثره على الجوامد لفعل، ولو أراد الله تسيير الجبال بالقرآن لفعل، ولو أراد الله تقطيع الأرض بالقرآن لفعل، ولو أراد تكليم الموتى بالقرآن لفعل »[68].

فهذا هو أثر القرآن على الجبال والأرض والموتى فيما لو خاطبها الله به وكلفها به وأمرها بتنفيذ ما فيه ولكن الله الحكيم سبحانه ما أراد ذلك « لقد شاء أن يكون القرآن خطاباً للبشر الأحياء ذوي القلوب والنفوس والمشاعر والأحاسيس فلماذا لا يتفاعلون به؟ ولماذا لا يسعدون معه؟ »[69].

وأخبرنا الله تعالى عن أثر القرآن الكريم على الجبل -فيما لو خاطبه به- فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]. فإن هذا القرآن لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها[70].

الجبل الجامد يتأثر بالقرآن لو أنزله الله عليه، سيتصدع هذا الجبل من أثر القرآن ويخشع هذا الجبل من خشية الله، ولكن الله تعالى ما شاء ذلك، إنما شاء إنزال القرآن على بشر وليس على جبل، فأنزله على قلب سيد الخلق محمد ﷺ وتأثر بالقرآن وتفاعل معه. وهذا القرآن خطاب للإنسان، فلماذا لا يتأثر كيانه بهذا القرآن، ولماذا لا يخشع قلبه من خشية الله منزل هذا القرآن؟

68- في ظلال القرآن 4 /2059

69- هذا القرآن، د. صلاح الخالدي 155

70- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي 853

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لما عمل له منبر، وقد كان يوم الجمعة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب، فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع، وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يُسكّت، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده، وهكذا هذه الآية. إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم[71].

ويصور سيد قطب تأثير القرآن في الجماد أبلغ تأثير فيقول: « ثم يجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه، وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾، وهي صورة تمثل حقيقة فإن لهذا القرآن لثقلاً وسلطاناً وأثراً مزلزلاً، لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته. ولقد وجد عمر بن الخطاب ﷺ عندما سمع قارئاً يقرأ سورة: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: 1-8] فارتكن إلى الجدار، ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهراً مما ألم به.

واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقي شيئاً من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً، ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام أو أشد، والله خالق الجبال، ومنزل القرآن، والذين أحسوا شيئاً من حس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقاً لا يعبر عنه إلا النص القرآني المشع الموحي »[72].

الإعجاز النفسي في القرآن العظيم أو تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة

إن تأثير القرآن في القلوب قد بلغ مبلغاً عظيماً لم يعرف قبله ولا بعده كلام قط، إذ تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم روعة وخشية وتعتريهم هيبة وتهيمن عليهم عظمته، ترى آثاره على الجاحدين أبلغ وأظهر، إذ يقرعهم ضلالهم ويقيم عليهم حججاً لا معقب لها فيستغلون سماعه ويتولون عنه بنفور مدبرين. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ [الإسراء: 46].

71- تفسير ابن كثير 4 /343

72- في ظلال القرآن 4 /3532

وقد شعر بعض زعماء الشرك أن القرآن قد تملك قلوبهم، وأحسوا في أعماقهم هزة روعته فكانوا يستخفون من الناس ويسترقون السمع إليه ليلاً، ورأوا آثاره في أتباعهم الذين تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين والسورة والسورتين، يتلوهما رسول الله ﷺ أو أحد أصحابه فتنقاد إليه نفوس كانت متعصبة للأوثان فتهجرها وتتحلى بهدي القرآن علماً وعملاً، أدباً وخلقاً، فأدرك زعماء الشرك شدة أثر وخطر القرآن على سلطانهم ونفوذهم، فأوصوا أتباعهم أن يحولوا بينه وبين أنفسهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26].

ونذكر شدة تأثر عتبة بن ربيعه والوليد بن المغيرة بالقرآن وكيف احتال الوليد لصرف الناس عنه فقال: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: 24]. وما قصة إسلام زعيمي الأوس سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلا شاهد على ذلك. وقد ورد في الصحيح عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب سورة الطور فلما بلغ الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: 35-37] كاد قلبي أن يطير للإسلام»[73]، وفي رواية أخرى وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي [74].

إن تأثير القرآن ونفاذه يستحيل أن تتحصن دونه القلوب، فإنه لو أنزل على قمم الجبال لغلقها وشققها بما يودعه فيها من هيبة الله وجلاله ألا ترى أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره من العوام من الخشوع والسكينة وزيادة الإيمان ما لا يخفى، وذلك كله من دلائل معجزاته وعظيم آياته الدالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ.

وهذا الفضيل بن عياض، مسلم، لكنه كان قاطع طريق، يسلب المال ويسفك الدماء، استمع ذات ليلة إلى قارئ يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16][75]. فتاب وحسنت توبته حتى أصبح من كبار الصالحين المقتدى بهم، فهل كلام يحدث جميع تلك الآثار يدعو به رجل أمي لا دولة له ولا سلطان، هل يكون إلا كلام رب العالمين.

73- صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الطور 6 /49

74- المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين 144

75- المصدر نفسه 344، وانظر: بالقرآن أسلم هؤلاء 108

أثر القرآن الكريم في الجن

كما كان للقرآن أثر بالغ وواضح على الإنس مؤمنهم وكافرهم كان له ذلك التأثير على الجن وهذا ما سجله القرآن الكريم حيث قال في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: 29].

يقول سيد قطب: «ويرسم النص مشهد هذا النفر وهم يستمعون إلى هذا القرآن ويصور لنا ما وقع في حسهم منه، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف: 29]. وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: 29]. وهذه كتلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن، فقد استمعوا صامتين منبهتين حتى النهاية، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا يطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به، وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه،وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام»[76].

ووقع الحق والهدى في هذا القرآن هائل ضخم، لا يقف قلب غير مطموس، ولا تصمد روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامع اللئيم، ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة. وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1-2].

هذه الآيات تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن، مفاجأة أطارت تماسكهم وزلزلت قلوبهم، وهزت مشاعرهم، وأطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض. فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعاً، ولا تملك له صبراً، قبل أن تفيضه على الآخرين في هذا الأسلوب من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه، وتخلخل تماسكه، وتدفعه إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين.

وأول ما بدا لهم منه أنه عجب غير مألوف، وأنه يثير الدهش في القلوب، وهذه

76- في ظلال القرآن 6/ 3273

صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح ومشاعر مرهفة، وذوق ذواق، ذو سلطان متسلط، وذو جاذبية غلابة، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب. فآمنا به: وهي الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن وإدراك طبيعته والتأثر بحقيقته، يعرضها الوحي على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون، وفي الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن، فيقولون: كاهن أو شاعر أو مجنون، وكلها صفات للجن فيها تأثير، وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثير منفعلين أشد الانفعال، لا يهلكون أنفسهم من الهزة التي ترج كيانهم رجاً، ثم يعرضون الحق فيستجيبون له مذعنين معلنين هذا الإذعان ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: 2]، غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين كما كان المشركون يفعلون.

سر تأثير القرآن في النفوس

تميز القرآن الكريم بتأثيره الخاص على النفوس، وهذا التأثير الأخاذ البليغ يدل على أن القرآن كلام الله. وللقرآن سلطان خاص على الفطرة، متى خُلي بينها وبينه لحظة، وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب، وثقل فوقها الركام، تنتفض قلوبهم أحياناً وتتململ تحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن.

إن الذين يقولون كثير وقد يقولون كلاماً يحتوي مبادئ ومذاهب وأفكاراً واتجاهات، ولكن هذا القرآن ينفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول، إنه قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب!

من الذي يتأثر بالقرآن أكثر من غيره؟ إنه المؤمن الذي يفتح للقرآن قلبه وعقله، وكيانه كله، الذي أشرق قلبه، وشفت روحه وصفت نفسه: « إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، تنشئ بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايد ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، كلما تفتح القلب وصفا الحس وارتفع الإدراك، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة.

وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان، ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه، فليست هي مجرد وهلة تأثيرية وجدانية غامضة، فهي منخفضة حين يخاطب القلب المجرب والعقل المثقف والذهن الحافل بالعلم والمعلومات »[77].

77- في ظلال القرآن 5 /2805، وانظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير 1413

وقد وقف كثير من علماء البلاغة والتفسير في القديم والحديث أمام أسلوب القرآن، ولاحظوا تأثيره البليغ الأخّاذ على القلوب والنفوس والأرواح واعتبروا هذا التأثير دليلاً على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على أشرف البريات، وعلى آله وصحبه أهل التلاوات وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم نشر الحسنات والسيئات وبعد.

فهذا ما يسر الله تعالى -فله الحمد والمنة- في هذا البحث راجياً أن أكون قد وفيته من جودة في العرض، ويسر في الأسلوب. إن إعجاز القرآن الكريم لا يمكن حصره، ولا يستطيع أحد جمع أركانه كما في الأثر «لا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»(78).

أهم النتائج التي توصلت إليها:

1. تعدد وجوه إعجاز القرآن الكريم وتجددها مع مرور الأيام على الدوام.
2. إن كثيراً من أوجه إعجاز القرآن تحتاج إلى مزيد من تفكر وبحث وجد في استخراجها.
3. إعجاز القرآن الكريم فيه مجال خصب للدعوة إلى الله تعالى وخاصة في زماننا هذا وما يليه من أزمنة حيث يعج العالم كله بالعلم والتطور في الاكتشافات العلمية الحقة فلذلك أدعى لأن يعرفوا أن الدين الذي لا يتعارض مع العلم تنزيل من رب العلم والخلق جميعاً فيذعنوا له ويأتوا إليه مسلمين.
4. القرآن الكريم رسالة الله الخالدة التي لن تزول ولن تتغير، ومن ثم فهو في حاجة إلى الجهود البشرية المستثمرة لاستخراج درره ومن ثم تبليغه للناس جميعاً في كل عصر، وحصر وقد اختار الله أمة الإسلام لتكون حاملة لرسالة القرآن ومبلغة له.
5. كل جهد يبذل في تلاوة القرآن أو حفظه أو تعلمه أو العمل به أو تدبره أو الدعوة إليه عبادة ينال فاعلها من الله الثواب الجزيل.
6. للبحث مع كتاب الله مذاق جميل، لا يطعمه إلا من اقترب من حياضه، وعاش بين

78- رواه الترمذي في فضائل القرآن وصححه موقوفاً على علي، ابن كثير في فضائل القرآن ص16-19

أجـزائه وسـوره وآياتـه، ومنّ الله عليه بتوفيقه، وأحاطه بعنايته ورعايته، ولم يحرمه التوفـيق فـيما يـبحث فـيه، والوصـول إلى المبتغـى الذي نريده، والبحث في وجوه إعجاز القرآن، وبخاصة (الإعجاز التأثيري) أمر له صعوبته وخطورته. أما صعوبته: فلأنـه لم يكـتب فـيه علماؤنـا الأجـلاّء بصورة مستقلة عن سواه من وجوه الإعجاز الأخـرى، وأما خطورته فلأني أخشى القول بما لا أعلم والوصول إلى ما لا أرجو، والأمر لا يتعلق بشيء هين، إنما يتعلق بأعظم كتاب على وجه البسيطة وهو القرآن العظيم.

وفي الخـتام أقـول: إن عملـي هذا جهد بشري لا يخلو من الخلل والقصور، ولا شك أن الباحث أمام القرآن العظيم صغير مهما عظم، قليل مهما كثر، فما كان فيه صحة وصـواب فمـن الله وحده، وما كان من زلل أو خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، أعاذنا الله منه، وأستغفر الله من ذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: تفسير القرآن الكريم وعلومه

1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تفسير أبي السعود الإمام أبي السعود، دار إحياء التراث العربي.
2. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر ط 2، 1403 هـ.
3. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، دار الحديث القاهرة، 1994.
4. تفسير القرآن الحكيم، تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة ط 2.
5. التفسير الكبير، الفخر الرازي، إحياء التراث العربي ط 3.
6. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي 1960.
7. جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة مصطفى البابي ط 2.
8. تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكريم المنان، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة ط1، 2002
9. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
10. الأساس في التفسير، سعيد حوى.
11. التفسير الميسر في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر ط2، 1991
12. روح البيان، الشيخ إسماعيل حقي البرسوي، دار إحياء التراث العربي.
13. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي.
14. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد الشوكاني، مصطفى الباب الحلبي ط 2، 1964.
15. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق
16. محاسن التأويل، تفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر ط 2،

1978

17. أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم د. الحسين جرنو محمود جلو، مؤسسة الرسالة ط 1، 1994.
18. إجمال البيان في مباحث علوم القرآن. عبد الله احميد، دار النسيم، بيروت، ط1.
19. إعجاز القرآن الكريم د. فضل حسن عباس، دار الفرقان ط 4، 2001
20. إعجاز القرآن، منشورات جامعة القدس.
21. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني د. صلاح الخالدي، دار عمار ط 2، 2004
22. إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة د. منير سلطان، منشأة المعارض 1977.
23. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية د. مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي ط 9، 1973.
24. إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين د. عبد الكريم خطيب، دار المعرفة ط 2 1975.
25. الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية د. محمد أحمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط 1 1984
26. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف ط2
27. الإعجاز العلمي في الإسلام محمد كامل عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية ط 2، 1993
28. الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره د. عبد الغني محمد سعيد بركة، مكتبة وهبة ط 1، 1989
29. الإعجاز النحوي في القرآن الكريم د. فتحي عبد الفتاح، مكتبة القداح ط1، 1989
30. البيان في إعجاز القرآن د. صلاح الخالدي، دار عمار ط3، 1993
31. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مطبعة المشهد الحسني ط2، 1951
32. الصلة بالله تعالى وأثرها في تربية النفس، محمد تيسير سليمان العلي، دار البشير ط 1، 1997
33. الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، بيروت 1980.
34. علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، مطبعة الصباح، ط6، 1996م.
35. الفوائد المشوق في علوم القرآن، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.
36. القرآن أنواره وآثاره وأوصافه، محمد محمود الصواف، مؤسسة الرسالة ط5، 1987.
37. القرآن يقوم العقل والنفس واللسان، خلف محمد الحسيني، دار نهضة مصر

للطباعة.
38. المدخل لدراسة القرآن، محمد بن محمد أبو شهبه، دار الجيل ط2، 1992.
39. المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر، ط2 1989.
40. المعجزة الكبرى، القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
41. المعجـزة القـرآنية، الإعجـاز العلمـي، د. محمـد حسن هيثو، مؤسسة الرسالة ط3، 1998.
42. المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاضي عبد الجبار، دار الكتاب ط1، 1960.
43. الموسوعة القرآنية الميسرة، إبراهيم الأبياري، مؤسسة سجل العرب، 1994.
44. النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم ط2 1970.
45. بالقرآن أسلم هؤلاء، عبد العزيز هاشم الغزولي، دار القلم ط1، 2001.
46. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، ط4.
47. دراسات في علوم القرآن، د. فهد عبد الرحمن الرومي، ط4، 2003.
48. فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1980.
49. كيف نحيا بالقرآن، نبيه زكريا عبد ربه، دار الحرمين، ط1، 1983.
50. مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، دار المسلم، 1996.
51. مـن أوجـه إعجـاز القـرآن الكريم، د. نبيل محمد آل إسماعيل، دار ابن حزم ط 1، 2002.
52. من دلائل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د. موسى الخطيب، المكتبة المصرية، ط1، 2004.
53. نظرات في القرآن، محمد الغزالي، دار الكتب العربية، ط 5.
54. هذا القرآن، د. صلاح الخالدي، دار المنار، ط 1، 1993.

ثالثاً: الكتب الأخرى

1. أثـر الإيمـان في شخصية الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبدا لله عبد الرحمن جربوع، مكتبة أضواء السلف، ط 1، 2000.
2. البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، 1988.
3. البيان والتبيين، الجاحظ، دار الجليل.
4. الترغيب والترهيب، المنذري، دار إحياء التراث العربي.
5. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق.

6. التعريفات، الجرجاني، مكتبة لبنان، 1978.
7. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرباط ط1، 1983
8. سنن الترمذي، الترمذي، مطبعة الأزهر، 1350.
9. السيرة النبوية، ابن هشام، مطبعة محمد علي صبيح.
10. صحيح البخاري، البخاري، دار القلم، ط1، 1981.
11. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي.
12. لسان العرب ابن منظور، دار صاد بيروت.
13. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق 1992.

رابعاً: المجلات

1. مجلة الفرقان، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، العدد السادس، تموز 2000.
2. مجلة المستقبل الإسلامية، العدد 116، ذو الحجة، مارس 2001، الندوة العلمية للشاب الإسلامي.